باب: الشرعي والبرجماتي

هل يستطيع أحد الاستغناء عن ميكافلي؟

ولما كان نهج صلاح الدين كما أسلفنا مستمد من إسلامه فإننا نجد من علاماته البارزة: القيم الأخلاقية السامية التي كانت تبدو وبمقياس ذلك العصر لا قيمة لها ولا اعتبار، أو بالأحرى هي لغة أجنبية لا يفهمها أحد، بل ولا يحاكيها أحد إلا على سبيل الرياء والسمعة، إنما القاعدة (راستي روستي) (كلمة تيمور لنك التي لا يقرها الإسلام وإن كانت هي شمس الشموس للقوى السياسية على مر العصور الحق هو القوة. أما: الصدق، الوفاء بالوعد، عدم الغدر، احترام العهد، العفو، الكرم، السماحة، الرحمة ..... الخ وغير ذلك في الحماقات والجرائم كما تبدوا من المنظار الميكافلي فقد تنزه عنها أهل ذلك العصر.

يقول جيب والفضل ما شهدت به الأعداء: [وكان مبدؤه الأول في سياسته نحو الأمراء، سواء أكانوا أصدقاء أو أعداء، هو صدقه فيما يقول وتمسكه المطلق به،حتى مع الصليبيين كانت الهدنة هدنة، وليس في سجله مثل على انه نقض اتفاقاً معهم، ولكنه لم يكن يغفر لمن ينقض عهده

وذلك ما كان على أر ناط والدويه أن يفهموه.

أما نحو منافسيه المسلمين فكان يقرن إخلاصه بكرمه، فبعد اتفاقه مع الملك الصالح سنة ١١٧٦ (وحادث استرجاع عزاز المشهور) ترك حلب إلى أن توفي الملك الصالح مع أن الخليفة كان قد أعطاه تقليدا بولايتها. وحاصر آمد لأنه كان قد وعد بها الأمير الأرتقي صاحب حصن كيفا جزاء على مخالفته له، و بعد أن استولى عليها ترك لخليفه كنوزها الهائلة على حالها – وذلك وفاء بوعد لم يسبق له مثيل أثار الدهشة والعجب] [(دراسات١٣٥)]

وتأمل العدو جيب يحدد الغاية ويوصف الشخصية – و الرائد لا يكذب أهله – فيقول: (كان غاية في البساطة فذاً في النزاهة. ولقد حيرّ أعداءه، من الادنين و الابعدين، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم، وأن يقوم بالألاعيب والمداورات السياسية مثلما يفعلون). [دراسات (١٣٢)]. أما غايته فهي (أن يتابع المضي في تحقيق حلمه النبيل، وإن كان مثالياً، في **إعادة حكم الشريعة إلى العالم الإسلامي**). [دراسات (١٣٨)].

هذه القيم المعنوية لما امتزجت بالقوة المادية – اللازمة ليجاوز بها أي تخطيط مرحلة الأمل – صار الكيان ذو طاقة هائلة.

ولم يقتصر أثر التمثل لهذه القيم على مجال القوة والطاقة بل تجاوزها لمجال أساسي ولازم لانطلاق أي كيان ألا وهو المجال الإعلامي.

الإعلام والدبلوماسية

هذه القيم – المتجسدة وقائع و حقائق – صار لها صدى هائل، وهكذا انطلق إعصار إعلامي أساسه الصدق (صدق الرسالة).

لقد كان هذا المزج أحد أهم تجديدات صلاح الدين وما كان يمكن إعادة رسم خريطة المصالح إلا به. وبه دعمت الأداة الدبلوماسية التي برع صلاح الدين في استعمالها.

إن التفاف الرجال والقادة من حوله، المقاومة الضعيفة من منافسيه و معارضيه من داخل الصف، اطمئنان الحلفاء للعمل تحت قيادته، في عصر لا يأمن الحليف حليفه مهما كانت الظروف وقد اختار الأستاذ محمد العبدة حفظه الله هذه الحادثة لتجسد روح العصر ف (ملك دمشق معين الدين آنر استجار بملك الموصل سيف الدين غازي لمساعدته على الصليبيين، فقال له الملك غازي: أخشى من الغدر تسلم لي دمشق حتى أكون في مأمن، وأنا أحلف لك إن

كانت النصرة لنا لا آخذ دمشق ولا أقيم فيها، ولكن (آنر) لم يطمئن ولم يسمح له بدخول دمشق).

بل والأكثر من ذلك (و في عام ٤٠٣ تآمر منوجهر مع أصحابه على قتل والده قابوس بن وشمكير صاحب جرجان حتى يصفو الأمر للابن) [العبدة (١٥)].

وتشهد علي أهمية ذاك الأثر الإعلامي هذه الحصون الشامخة التي يخليها الصليبيون أعداؤه بناء على كلمة مجرد كلمة تخرج من فمه، إن ذلك في الواقع يقدم براهين واضحة لا تقبل الجدل.

والعاقبة للتقوى

هذا المحور الأساسي – الالتزام بالخلق الإسلامي والشرع – من منهج صلاح الدين (أيدلوجية) على الرغم من أنه سبب له العديد من المشاكل وتوجه إليه من جرائه سيل من الانتقادات سواء من جنده المقربين أو الحاشية الملتفين (وأقام السلطان على القدس حتى تسلم ما بقربها من حصون، واستباح كل ما للكفر بها من مصون، ثم عمد إلى ما جمعه ففرقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عذله، على بذله، واستكثروا ما أفاضه بفضله، فقال: كيف

أمنع الحق مستحقيه؟ وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه، فإنه يخلصني من الأمانة .....).

وهذا ابن الأثير يعزي عصمة صور على الفتح إلى تلك السياسة فهو لم يفتح الحصون عنوة ثم هو يحترم الأمان الذي أعطاه لجند القلاع كي يخلوها له فتجمعوا في صور فلم يستطع فتحها بعد.

وقد أنكر عليه قواده ترك كنوز آمد لحليفه (وتسلم السلطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصبت أعلامه على أسوارها، وذلك في رابع عشر المحرم، ووجد فيها من الغلال والسلاح وآلات الحصار أشياء كثيرة لا يمكن أن يوجد في بلد مثلها، ووجد في برج من أبراجها مائة ألف شمعة وأشياء يطول شرحها، وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب فوهب السلطان الكتب للقاضي الفاضل فانتخب منها حمْل سبعين حجازة، ويقال: إن ابن قرا أرسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لا حاجة له به مدَّة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها، وكان السلطان لما تسلم آمد وهبها لنور الدين

محمد بن قرا أرسلان بما فيها، وكتب له بها وبأعمالها توقيعاً، ووفى له بما وعده به، وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد وما وعده بما فيها من الأموال والذخائر وفيها من الذخائر ما يساوى ثلاثة آلاف ألف دينار، فقال: لا أضن عليه بما فيها من الأموال، فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا). [الروضتين (٣٥٨)].

كأن تلك الانتقادات هي الضريبة التي يجب أن تجبى من سجل كل مجدد ومصلح يرقى عن أهل زمانه.

لكن عدوه جيب ينصفه فيقول: (أما إلي أي حد أسهمت شهرة صلاح الدين بالسخاء والإخلاص المطلق لكلمته في استعادة فلسطين وسورية الداخلية خلال السنة و النصف اللتين أعقبتا واقعة حطين فذلك أمر مشهور إذ لو أن الضرورة دعت إلى الاستيلاء على كل قلعة وبلدة محصنة بواسطة حصار منتظم، لما كان أكثر من عشرها قد سقط قبل استهلال الحرب الصليبية الثالثة [أرسلت بعد تحرير القدس] ولكان بالتالي تاريخ تلك الحرب مختلفا كل الاختلاف لو أن الصليبيين قد حصلوا على الدعم من

حاميات عسكرية تعمل وراء جيش صلاح الدين). [دراسات ١٣٨].

وبالأضداد تتجلي الحقائق، قارن بين نتائج هذه السياسة والسياسة المقابلة التي أنتهجها الصليبيون بمنتهى الغطرسة والغدر وهم يحاولون السيطرة على مصر.

درس بليغ

هنا يجدر بنا أن نلخص الدرس البليغ؛ فالدخول في (السلم كافة) كأساس لا بديل عنه للوصول للقدرة على القيام بفرض الوحدة والاعتصام بحبل الله – من الكافة – يحتاج لأسباب تدفع وتيسر على الكيانات الالتزام به – حسب الإمكان.

ومن أهم هذه الأسباب إعادة ترسيم خريطة المصالح بناء على تجديد الدين، فتمتزج القوة المادية متمثلة في جمهور وكوادر ومؤسسات وقيادة بالقوة المعنوية الهائلة ممثلة في الالتزام بالتكاليف الشرعية، بدءا من أعلاها ألا وهو إقامة التوحيد الشامل المتكامل، وحياة الولاء والبراء والإخلاص الصادق، مروراً بالوفاء والرحمة والصدق، وكذا التبسم في

وجه أخيك المسلم (لا الاقتصار على أخيك في الجماعة أو الكيان أو الحزب)، حتى إماطة الأذى عن الطريق.

أدلف هتلر/ نابليون بونابرت

هكذا تعد الوصفة الحقيقية لوحدة حقيقية للمسلمين.

والخلل في اعتبار ما سبق هو أحد أهم الأسباب المفسرة لسجل الفشل الدائم لبعض الكيانات الإسلامية الكبرى ذات الثقل المادي الكبير، سجل الفشل في مجال توحيد الصف واستيعاب القوى الإسلامية، سواء في الزمن الماضي أو المعاصر وأخشى أن أقول وكذا في الزمن المنظور القريب.

فالخطأ أن نعول على القوة المادية الذاتية لعصبته على وفق السنة الهتلرية، وألا نجعل توحيد الصف على التوحيد هو أول الأولويات الحركية على الإطلاق.

وألا نعطي مسألة ترشيد المصالح من خلال منظومة القيم الشرعية القدر الكاف من الاهتمام.

مع بقاء تلك النظرة العصبية الضيقة أرى بها أخواني، أرى عيوبهم فتشغلني تلك النظرة عن تصحيح عيبي، فلا أكون قادراً أو حتى راغباً في ترشيد قيمي الذاتية، ناهيك عن قيم غيرى، ومن ثم المناهج.

غيرى الذين هم في الحقيقة الغائبة مني وأنا منهم.

وللأسف الشديد هذه السياسة هي الرائجة الآن في الساحة، فإلى الله المشتكي.

باب: استكمال ما لابد منه

تمثل القدوة

وبقدر إخلاص صلاح الدين لرسالته صار قدوة في أفعاله يقول الأستاذ العبدة حفظه الله: (وقد ذكرنا كيف أنه كان ينقل الحجارة بنفسه لعمارة سور القدس «ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره لعلمت أن له قلباً قد حمل جبلاً في فكره» وعندما رجع إلى دمشق وجد وكيل الخزانة قد بنى له دارا فغضب عليه وقال: إنا لم نخلق للمقام بدمشق ولا بغيرها وإنما خلقنا للجهاد). [(٩٢) عبدة]

(وكان متواضعاً جداً، يخرج للقاء من يقدم عليه، ويكارم الناس مكارمة عظيمة ولربما طلب الماء من خدمه فلم يستجاب له، ولا يقول لهم شيئاً. قال القاضي الفاضل: (وكانت طرحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص (ما يطلبه الناس..). (وكان رحمه الله يركب

وينقل الحجارة بنفسه على دابته من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر) [ابن الأثير – العبدة ٧١].

وقد أسلفنا قطع من سيرته كعبد مسلم.

حتى الإنجليزي جيب رتب علي ذلك آثار هامة تراها في صلب العناوين القادمة فهو يقول: (فلقد انتشل الإسلام طوال فترة حاسمة – رغم قصرها – من وهدة الانحطاط الأخلاقي السياسي، حين نادى بمثل أخلاقي أعلى، ولما أن طبق هذا المثل على حياته الخاصة وأعماله **خلق حوله حافزاً للاتحاد** كان كافياً – بالرغم من عدم اكتماله – لمواجهة تحد مغيب ألقاه القدر في طريقه). [دراسات ١٤٠]. (ويرى أن تلك الاستراتيجية الخلقية شكلت رافعة سياسية وذللت الكثير من ا لصعوبات في معاركه العسكرية). فهو يعتبر أن انتصاراته (جاءت بفضل امتلاكه لصفات معنوية (أدبية) لا تشترك مع المواهب (الحربية) إلا في القليل .. وبهذه الوسائل، وليس بفضل مقدرة استراتيجية حربية متفوقة، نجح صلاح الدين في حشد ذلك الجيش الذي قدر له أن يقضي على مملكة القدس اللاتينية». [(١١٤) وليد]

ولكي ندرك لأي مدى صار قدوة محبوبة نرى وصفهم له حال حياته وموته «رأيت صلاح الدين على القدس، فرأيت ملكًا عظيمًا يملأ القلوب روعة والعيون محبة. قريبًا وبعيدًا، سهلاً ومحببًا، وأصحابه يتشبهون به ويتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى: ﴿نَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [سورة الأعراف: ٤٣]، وأول ليلة حضرته وجدتُ مجلسًا حفلاً بأهل العلم يتذاكرون في أصناف العلوم، وهو يحسن الاستماع في المشاركة، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك. وكان مهتمًا في بناء سور القدس وحفر خندقه ويتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الأغنياء والفقراء، فيركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهيرة، ويأتي داره فيمد السماط ثم يستريح، ويركب العصر ويرجع في ضوء المشاعل، ويصرف أكثر الليل في تدبير ما يعمله نهارًا»[١].

هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس. [د. ماجد عرسان الكيلاني/ ٢٤٧]. وهذا ابن شداد يصف حال الناس عند موته

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ج٧، ص ٣٤٧.

(وفي صباح الأربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٤ آذار ١١٩٣) توفي صلاح الدين فغشي القلعة والبلد والدنيا مما لا يعلمه إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس إنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث إلى على ضرب من التجوز والترخص إلا ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفُدي بالنفس » . [ابن شداد/ حطين/ زكار/ ١٨٤] .

تزاوج النجائب واعتلاء القمة

محصلة التزاوج بين القوتين المادية والمعنوية والقدرة على تجديد خريطة القيم ومن ثم ترشيد خريطة المصالح ثم التعامل معها بواقعية منضبطة بالشرع، جنبا إلى جنب مع الإعلام الصادق الذكي ذو الصبغة العقدية الشاملة (الأيدلوجية)، مع التمثل الحقيقي للرسالة بحيث تسطع القدوة، استكمال هذا التركيب السابق مكن صلاح الدين أن يتعامل مع معضلة عصره وعصرنا معضلة المحور الثاني – السياسة الشرعية – ألا وهي (الشرعية السياسية) .

باب: دعامة القيادة

الشرعية السياسية

جوهر الظاهرة السياسية ظاهرة السلطة – بغض النظر عن نطاقها أو أهدافها .... الخ –، لا يتصور وجودها إلا بتمثل مفهومين هامين لنوعين من العلاقات المحورية (نحن – هم)، (آمر – مطيع).

ولكي يطاع الآمر يجب أن ينزله المأمور منزلة من تجب طاعته، سواء كان ذلك عن اقتناع محض أو مشوب ببعض أو كثير من الإكراه.

إقرار الكافة لـ (فئة أو كيان أوفرد) باستحقاق الولاية بحيث تقبل طاعته، هذا هو ما يمكن التعبير عنه بمصطلح الشرعية (بالمفهوم السياسي) لتشمل كل هؤلاء ذوي التماثل في تصورهم لحدود العلاقة (نحن– هم).

هذا موضوع هام وخطير جدا غفل عنه كثيرون – ممن اضطلع بمحاولة التغيير للسلطة فكانت النتيجة خسائر لا حد لها – إلا قلة من النابهين أمثال إمام الرافضة خوميني في العصر الحديث ودهاه العباسيين في العصر القديم. ولهذا بسط ليس هذا ما محله

كانت هناك عدة عقبات أمام صلاح الدين ليصل لتلك المنزلة من الشرعية (الاستحقاق للولاية) والقبول له كقائد لا في مصر واليمن فقط بل ليشمل كل الميدان الممتد من كردستان وآمد (ديار بكر) مروراً بالجزيرة (العراق) والشام حتى النوبة واليمن، قائد للكافة (أهل الشوكة، الجند، القادة، العامة، الخاصة من الأعيان والعلماء، أهل الحل والعقد لكل محله، الزعامات وأصاحب النفوذ).

بل أن يضمن تأييد مقام الخلافة العباسي ذلك المقام الذي كان دائم القلق من أي قوة (فتية) بعد خبرة الدولة البوهيه وكذا سلطنة السلاجقة.

عقبات كؤد

وكانت هناك العديد من العقبات تحول بين صلاح الدين وهذه الشرعية التي لابد أن تكون من القوة والاتساع المكافئ للمكان وما عج به من أهل الزمان.

من هذه العقبات كما أسلفنا ميراث نور الدين محمود من الكوادر القيادية والشرعية الدينية والأعوان. وبيت صلاح الدين ليس ببيت ملك، بل والأسوأ من ذلك هو

كردى في عصر شهد الاستعلاء للجنس التركي، وتأمل وصف المؤرخ المعاصر له وليم الصوري فهو ينعته بأنه من أصل وضيع. فما بالنا وذلك الكردي يحاول إخضاع آل البيت الذي كان في الحقيقة تابع له.

لذلك لم يكن عجباً ذلك التحقير من جنود الموصل عندما زحفوا ضده لأول مرة عندما وصموه بأنه (كلب يعوي على سيده)!، لكن بعد سبعة عشرة عاماً يتعجب ابن الأثير تغير الموازين وهو يروي عمن شاهده (صلاح الدين) يودع ضيفه معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان من ملوك الدولة السلجوقية في بلاد الأناضول، فلما أراد صلاح الدين الركوب عضده معز الدين وأركبه، وسوى ثيابه علاء الدين من آل زنكي فيكون التعليق (ما تبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت يركبك ملك سلجوقي وابن اتابك زنكي) يعلق الأستاذ العبدة حفظه الله (فكأن ابن الأثير وراويه استنكرا أن يصل واحد من بني أيوب إلى هذه المنزلة).

فما الذي حدث هل غير صلاح الدين النظرة الاجتماعية للأجناس؟ في الحقيقة هذا لم يحدث، ولم يستطيع الخطر الشديد المشترك الذي يلحم المنافسين

والخصوم أن يحل هذه المعضلة، فعندما أعد الصليبيون أعظم عدة للقيام بالهجوم المضاد على القدس بعث إليه قواده برسالة مما جاء فيها (إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد) مما يدل على رسوخ الحساسية العرقية، لكن الغريب أنهم لم يعتبروا كردية صلاح الدين بل كأنه سمى على الأجناس فهو ليس إلا قائدهم المسلم الذي لاينتظم أمرهم إلا به أو امتداده فكيف تم هذا؟ هنا يجدر بنا أن نشير في عجالة إلى بعض أركان الشرعية السياسية.

من أركان الولاية (الشرعية)

أن استحقاق الولاية (الشرعية بالمفهوم السياسي) له مكونان أحدهما مادي والآخر معنوي، ولابد من حد أدنى من القوة المادية وكذا من الدعائم المعنوية، هذا الحد الأدنى يتغير دائماً بتغير طرفي معادلة الشرعية (المادي/المعنوي) وكلما زاد أحدهم في مكون الشرعية يتجه القدر اللازم لتحصيل الحد الأدنى للطرف الآخر نحو السفول المقيد، في علاقة عكسية.

ويمكن النظر إلى تلك العلاقة من منظار طردي، باعتبار أن أي زيادة في أحدهما تصحبها زيادة في فاعلية الثاني.

هذا الأمر الهام أدركه صلاح الدين وأستخدمه كي يضاعف قوته من خلال ذلك القانون.

فبالإضافة للأثر الفعال لترشيد خريطتي المصالح والقيم كان للتمثل الصادق من صلاح الدين لرسالته المعلنة - المؤيدة بالقوة - فعل السحر، ولندع جيب يصف جزء من ذلك فالفضل كما يقولون ما شهدت به الأعداء: (ولكنه هو نفسه الذي جمع حوله جميع العناصر والقوى التي كانت تستهدف توحيد الإسلام في وجه الغزاة ووجهها وألهمها.

ولم يستعمل في تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمه الذاتيين في غالب الأحيان - وهما خلتان فيه لا تنكران - وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنكاره للذات وتواضعه وكرمه، ودفاعه المعنوي عن الإسلام ضد أعدائه وضد من ينتمون إليه انتماء أسميا، على حد سواء. [دراسات ١٣٢].

(وأرى أنه لم يحاول أحد من الدارسين حتى اليوم أن يتفهم الطبيعة الحقيقية لتلك المثل العليا). [١٣٣ دراسات]

(والحق أن الفضل في اتساع دولة صلاح الدين في آسيا بين عامي ١١٨٢ و ١١٨٦ م فيما عدا الاستيلاء على قلعة آمد – إنما يعود في الأكثر إلى تأثير هذه العوامل لا إلى الأعمال العسكرية. وكانت أعماله الحربية أمام الموصل وحلب أقرب إلى المظاهرات منها إلى الحصار. وإذ كان صغار أمراء الجزيرة واثقين من خلق الرجل فإنهم من تلقاء أنفسهم وضعوا أنفسهم تحت حمايته. وبعد أن قام قادة عسكر نور الدين في حلب بأعمال لا تكاد تتعدى التظاهر بالحرب أقبلوا جميعاً لتقديم أصدق الخدمات. حتى في الموصل، كما يقول ابن الأثير في تاريخه، وجد صلاح الدين موالين له بين أمراء الجيش، وهؤلاء هم الذين أجبروا الأتابك الزنكى آخر الأمر على التسليم عام ١١٨٦م.

وربما كان علينا ألا نبالغ في مدى تأثير الفقهاء على العساكر، لكن في مراجعنا عدة أمثلة تشير إلى تدخلهم الحاسم، ..... وأبرز الأمثلة كلها قضية شاه أرمن خلاط، فقد كان هذا من اعتي خصوم صلاح الدين، ولكنه قبل نهاية الحرب الصليبية الثالثة قدم لصلاح الدين عساكره وولاءه طوعاً. [١٣٧دراسات].

(ولكن لما كان قد سعى إلى تحقيق حلمه بإنكار الذات والعدل والإخلاص، فإنه استطاع بهذه الأسس الأخلاقية وحدها أن يضطلع بالمهمة الملقاة على عاتقه وهى مهمة لم يسبق لها مثيل. فخلال قرون لم يسبق لأمير مسلم أن واجه مشكلة إبقاء جيشه في الميدان لمدة ثلاث سنوات وهو يحارب عدوا نشيطاً مغامراً .. وكان النظام العسكري الإقطاعي غير صالح أبداً لمثل هذه الحرب حتى ولو أمكن إيجاد نظام محدود لتبادل الخدمة العسكرية بين عساكر مصر والجزيرة. [دراسات ١٣٨].

ولأن المصلحة الشرعية ومن ثم الواقعية اقتضت حسن التعامل مع مقام الخلافة لإرضاء الله ثم نيل مزيد من الشرعية التي تترجم على الفور إلى قوة مادية، تعامل صلاح الدين بما يقتضيه الشرع مع آخر الخلفاء الأقوياء. ولنرى جانبا من التناقض بين منطلقه ومنطق عصره من هذه الحادثة التي تؤكد فيها أقواله أفعاله.

فقد طلب إليه رسول الخليفة أن يحول منطقة شهر زور في كردستان إلى الخليفة فوافق على ذلك وأجاب طلب الرسول. وعندما رأى غضب أمرائه وحنقهم أجاب قائلا:

(السلطان الخليفة ملك الخليقة، وهو مالك الحق والحقيقة. فإن وصل إلينا أعطيناه هذه البلاد فكيف شهرزور؟). ويخاطب مقام الخلافة قائلا: (وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله، هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها ومغنمه من الدنيا إذا منحها والله العالم .. أنه لا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسم أنها تلزم ولا ينوى إلا هذه النية).

أما أثر تلك السياسة فهو هام جداً لإحراز النصر في المعارك، فبفضل (براءة) الخليفة له أصبح حاكماً شرعياً لولايتي الفرات وخابور لذا لما شرع في السيطرة علي هذه المواقع السابقة لآل زنكي في الجزيرة يواجه بمقاومة لا ترقى لأهمية هذه الولايات.

ولأنه يعرف أن القوات المصرية لا تستطيع الكفاية بالغرض الأساسي من رسالته – طرد الصليبيين وتحرير الأقصى – فقد ألح للحصول على منشور الخليفة من أجل الولاية على آمد ديار بكر المليئة بالرجال .

أما بالنسبة **للعلاقة (نحن – هم)** فهو لم ينتهج سياسة الدماء الزرقاء – المنفرة – سواء للجنس أو الصحبة: فكبار

القادة من كل جنس، وهو يضع في المراكز الهامة الرجال الأكفاء خريجي الكيانات الأخرى دون حساسية، بل مع وجود سجل خصومات سابقة، بشرط المتابعة المنهجية والالتزام بالجماعة.

من هؤلاء القادة أمثال: عماد الدين زنكي (بعد معالجة)، عز الدين جور ديك وهو من مماليك نور الدين.

من هؤلاء العلماء و القضاة أمثال: القاضي كمال الدين الشهرزوري الذي كان من كبار العلماء والوزراء في عهد نور الدين بل كان من أهل المشاحة مع صلاح الدين نفسه.

من هؤلاء السفراء أمثال: القاضي بهاء الدين الذي كان في حاشية وفد الموصل فمال إليه لما رأى حقيقته.

من هؤلاء الكتاب أمثال: عماد الدين الأصفهاني الذي بدأ في خدمة السلاطين السلاجقة.

ومن غير هؤلاء الكثير و الكثير.

وهكذا لا يترك الأكفاء المحرومين يشكلون مع غيرهم بلورات تخدم المنافسين، بل يستفاد من وجودهم – فوق الكفاءة – في اجتذاب المزيد من أمثالهم بالمبالغة في إكرامهم.

وهكذا تتسع دائرة (نحن) لدي صلاح الدين وتضيق بالتبعية عند منافسيه.

باب: من طلب الشي قبل أو بعد أوانه ابتلى بحرمانه

التوقيت المناسب

وحتى ذلك الحين فقد تجنب صلاح الدين المواجهات الكبرى حتى يعبئ القدر الكاف للمهمة الطويلة والشاقة التي تنتظره.

فقلد كان التوقيت من السمات الهامة في البرنامج العملي له. سواء مع الأعداء أو مع المنافسين. (وتمت الإشارة إلى أنه قد واجه العديد من المشاكل، واصطدم بأتابكة الموصل وسواهم، لذلك رحب بالفرصة التي توفرت لديه بقيام هدنة بينه وبين الفرنجة، وذلك حتى يتمكن من حل مشاكله هذه، ويكمل توطيد أركان دولته.

ويروى أنه أصيب أثناء مسعاه هذا في تشرين الأول لسنة ١١٨٥م بمرض عضال، حتى يئس من حياته، وعندما وقف بين الحياة والموت، رأى أن مصير المملكة اللاتينية معلق بالميزان، ورأى ببصيرته كحاكم شرقي أن موته كان

معناه بلا شك انعدام الوحدة بين صفوف المسلمين، والعودة إلى حياة الفوضى، حتى تتأتى فرصة جديدة لقيام حاكم قوي جديد، وكان هذا في أبسط معانيه حياة جديدة منحت للقوى اللاتينية في سورية، وفرصة لا تعوض لحل مشاكل مملكة القدس، والعودة إلى الاتحاد، لكن القدر قرر العكس، وبعدت المنية عن صلاح الدين، وبدأ الرجل العظيم يتعافى، وفي آذار لسنة ١١٨٦م أبرم معاهدة جديدة مع أتابكة الموصل، بقي بموجب بنودها الأمير عز الدين أميراً للموصل وسيداً لأعالي بلاد الرافدين، إنما مع الاعتراف بسيادة صلاح الدين والدعوة له.) [حطين / زكار/ ١١١].

باب: ضربة حظ أم تخطيط موفق

لما لا تكون مجرد مصادفات؟

لم يكن كل ما سبق مجرد خبط عشواء فوجئ صلاح الدين بثماره، فحاطب الليل أن سلم لا يرجع إلا بخشب. لقد كان يدرك تمام الإدراك لما يفعل ولما يريد ونكتفي في هذه العجالة بهذا النقل الذي يدل على إدراكه للمشكلة ونتاج إستراتيجيته عندما يخاطب بهاء الدين قائلا: (فإنني لو حدث بي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر).

بل هو يدرك أثر الشرعية في تحقيق الانتصارات وكذا الاندحارات فهذا ابن الأثير يؤرخ: (وكنت حينئذ بالشام في عسكر صلاح الدين يريد الغزاة، فأتاه الخبر مع النجابين بمسير العسكر البغدادى، فقال: كأنكم وقد وصل الخبر بانهزامهم. فقال له بعض الحاضرين: وكيف ذلك؟ فقال: لاشك أن أصحابي وأهلي أعرف بالحرب من الوزير، وأطوع في العسكر منه، ومع هذا، فما أرسل أحدا منهم في سرية للحرب إلا وأخاف عليه، وهذا الوزير غير عارف بالحرب، وقريب العهد بالولاية، ولا يراه الأمراء أهلا أن يطاع، وفى مقابلة سلطان شجاع قد باشر الحرب بنفسه، ومن معه يطيعه. وكان الأمر كذلك، ووصل الخبر إليه بانهزامهم فقال لأصحابه: كنت أخبرتكم بكذا وكذا، وقد وصل الخبر بذلك).

أما عن طريقة استخدام المصالح وإعادة تحليلها ثم تقسيمها كي تخدم إستراتيجيته، فهذا القاضي الفاضل يشرح جزء منها بلسان بليغ:

(فتحنا مدينة حلب، وتسلمنا قلعتها التي ضمنت أن

نتسلم بعدها بمشيئة الله قلاعاً، وعوض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالغدة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة، لأن مرادنا من البلاد رجالها لا أموالها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها للعدو لا نضرتها، والأوامر بحلب نافذة، والرايات بأطراف قلعتها آخذة، وجاء أهل المدينة يستبشرون، وقد بلغوا ما كانوا يأملون، وأمنوا ما كانوا يحذرون، وعوض صاحبها ببلاد من الجزيرة على أن تكون العساكر مجتمعة على الأعداء، مرصدة للاستدعاء، فالبلاد بأيدينا لنا مغنمها، ولغيرنا مغرمها، وفى خدمتنا ما لا نسمح به وهو عسكرنا، وفى يده ما لا نضن به وهو درهمنا، شرطنا على عماد الدين النجدة في أوقاتها، والمظاهرة على العداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلد إلا إلينا عاد عسكره، وإنما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبره، وتكون عساكره إلى عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. [الروضتين].

وهو نقل لا يحتاج إلي تعليق إنما إلي إعادة قراءة وتأمل

فهو يلخص فلسفة صلاح الدين في إعادة ترسيم المصالح.

تجنيد أبناء الملوك

ولكي ندرك مدي فاعلية تلك السياسة وأثرها لابد أن نعود لأصل القصة قصة حلب وما حدث مع عماد الدين زنكي؟ الذي يمثل مثال تطبيقي جيد لنظرية صلاح الدين.

فلنبدأ من البداية وابن الأثير يرسم صورة لآخر لحظات الملك الصالح بن نور الدين محمود وهو يحصن آل زنكى من سيطرة صلاح الدين فيقول: (فلما أيس من نفسه أحضر الأمراء كلهم وسائر الأجناد، واستحلفهم لأبن عمه أتابك عز الدين، وأمرهم بتسليم مملكته جميعاً إليه، فقال له بعضهم: إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من البلاد من همذان إلى الفرات، فلو أوصيت بحلب للمولى عماد الدين ابن عمك لكان أحسن، ثم هو تربية والدك وزوج أختك، وهو أيضاً عديم المثل في الشجاعة والعقل والتدبير، وشرف الأعراق، وطهارة الأخلاق والخلال التي تفرد بها، فقال: إن هذا لم يغب عنى، ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومعي، فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها

من صلاح الدين، فإن ملكها صلاح الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله، فاستحسن الحاضرون قوله وعلموا صحته وعجبوا من جودة رأيه مع شدة مرضه، ومن أشبه أباه فما ظلم.

لكن عماد الدين الذي يتيم بحلب لا يرى غيره أحق بها فقال لهم: (إن سلمتم إلى حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين) فوافق أخوه أتابك عز الدين زنكي على المبادلة وهو كاره ... فلما سمع أتابك عز الدين بوصول صلاح الدين الشام جمع عساكره وسار عن الموصل خوفاً على حلب فاتفق أن بعض الأمراء الأكابر مال إلى صلاح الدين وعبر الفرات إليه، فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده إلى أحد من أمرائه إذ كان ذلك الأمير أوثقهم في نفسه، فعاد إلى الموصل. (ما الذي جعله يميل لصلاح الدين الذي لم يسبق معاشرته ويترك من يعتبره لديه مكين؟!، تأمل أخي القارئ هذا الحدث مرة أخرى لتدرك حجم الهالة المغناطيسية التي أحاطت بصلاح الدين في تجذب إليه الأجرام الكبرى لتدور في فلكه!).

قال القاضي ابن شداد:

لما نزل السلطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خلق كثير وقاتلها قتالا شديداً، وتحقق عماد الدين زنكي أنه ليس له به قبل، وكان قد ضرس من اقتراح الأمراء عليه، وجبههم إياه فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفر له مع السلطان في إعادة بلاده وتسليم حلب إليه، واستقرت القاعدة ولم يشعر أحد من الرعية ولا من العسكر حتى تم الأمر، ثم أعلمهم وأذن لهم في تدبير أنفسهم، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقدمو حلب وخلع عليهم، وطيب قلوبهم وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه). [الروضتين ٣٥٩].

(وهنا يبرز سؤال لماذا يُترك أبناء الملوك من أمرائهم؟، وكيف تنضم العساكر الحلبية فوراً لهذا الذي كانوا بالأمس بل من ساعات يقاتلون؟ ولماذا يترك ذلك القائد الذي يقاتله هو وكل آل بيته ليفوز بهذه المقايضة؟ كيف يتركه يخرج بكل أثقاله؟!).

لعلنا لم ننس بعد ما سطره القاضي الفاضل يكشف لنا جزء من خرائط المصلحة الأيوبية.

وبعدما أجلى عماد الدين زنكى عن قرة عينه (حلب) الذي نزعها منه صلاح الدين (إذ أن موقع حلب الإستراتيجي لإحكام القبضة التامة أمام القوى الصليبية لم يجعل أمام صلاح الدين أي خيار آخر).

كنا نتوقع حقد وحسد مادام الليل والنهار، لكن نفاجئ بهذا السلوك عندما يتوجه صلاح الدين لأصل آل زنكى (الموصل)، يقول ابن شداد: (ووصله في ذلك اليوم رسول يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يعد عن الموصل وماردين، وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك). وقال العماد: (ثم سار السلطان لقصد الموصل، فنزل على دجلة بقرب الموصل في شعبان وعزم على أنه يشتى في ذلك المكان، فخرجت من الموصل نساء أتين إليه بكتاب متعرضات للشفاعة، فأكرمهن السلطان، ووعدهن بالإحسان وقال: قد قبلت شفاعتكن لكن لابد من

مصلحة تتم ومصالحة نفعها يعم واستقر الأمر على أن يكون عماد الدين زنكى صاحب سنجار أخو صاحب الموصل وسيطاً في إصلاح ذات البين، وحكماً فيما يعود لمصلحة الجانبين). [٣٦٩ الروضتين].

بل يظهر معدن آل زنكي الذي صقل بعد خروجه من مصهر برنامج وخطة صلاح الدين. الذي جاءته جحافل لا قبل لأحد بها انتقاماً مما صنع بالصليبيين، فما الذي حدث منهم ومعهم؟

عندما حشد الصليبيين أقصى طاقتهم، حتى النساء! (ووصلت في مركب ثلاث مائة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر وانتدبن للجزائر، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العزبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعُزبة). (وأبق من عسكرنا من المماليك الأغبياء جماعة اتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذة بالذلة، ومنهم من ندم على الزلة، وأمر الهارب إليهم لاتهامه يشتد، وباب

الهوى عليه يستد، وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنت منها العَزَب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبان المضيقين من فرْجها فرَج). [(٤٢١) (٤٢٢) الروضتين].

أما الأخريات فقد جئن محاربات، (وفي يوم الوقعة طلعت منهن نسوة، لهنّ بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهنّ قسوة، وليس لهنّ سوى السوابغ كسوة، فما عرفن حتى سُلبن وعُرّين، ومنهنّ عدّة سبين واشترين، وأما العجائز فقد امتلأت بهنّ المراكز، وهن يشدّدن تارة ويرخين، ويحرضن ويُنخين، ويقلن: إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وإنه لا بقاء له إلا بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر إلى الاتفاق في الضلال بين الرجال والنساء) [(٤٢٣) الروضتين].

اجتمعت حشود هائلة، فاستنفر صلاح الدين المسلمين، فجاءت الفرصة لمن كان من الحاقدين أن يصفي حسابه فيطعن من الخلف أو ينقض الإتفاق أو على أقل تقدير ألا يمد له يد المعين، ولكن فماذا صنع آل زنكي أجمعين؟

(والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن

مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره زوج ابنته فلقيه السلطان بالاحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه، وسار به حتى أوقفه على العدو وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاماً لائقًا بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدم له من التحف واللطائف ما لا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانب وبسط له ثوبًا عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر.

وفي سابع من جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي فلقيه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين وفي تاسع جمادى الأولى وصل ابن صاحب الموصل وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي نائبًا عن أبيه ففرح السلطان به فرحًا شديداً وتلقاه من بعيد هو وأهله واستحسن أدبه، وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمة عظيمة، وقدم له تحفًا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل

صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين على فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعني في الميسرة).
[(٤٢٩) (٤٣٠) الروضتين].

باب: الفرد والفريق مع البنية التحتية

كيف يُنتج وأنى للخطط أن تنجح؟

ونحن نحاول في هذه الدراسة إبراز عبقرية مشروع السياسة الشرعية لصلاح الدين وأساليب تنفيذه يجب إلا نغفل عدة قضايا خطيرة، كيف أُنتج مثل هذا الكادر (صلاح الدين) وهل كان ممكن أن تنجح خططه إلا في بيئة مناسبة وكيف وجدت هذه البيئة.

وهل كان صلاح الدين في الحقيقة فرد أم فريق – و إن كنا لا نستطيع تفصيل الإجابة و إلا اتسع هذا البحث جداً – لكن لابد أن نشير إلى أن كل ذلك كان ثمرة جهود سابقة متراكمة بذلتمن قبل ميلاد صلاح الدين بكثير، أنها جهود أجيال وفي كل التخصصات.

وهو ككادر فذ لم يأت من الهواء إنما هو أحد خريجي مدرسة التقي العملاق نور الدين محمود زنكي.

أما فيما يتعلق بالإجابة عن التساؤل أكان الإنجاز لفرد عظيم وحيد أم شاركه غيره؟ فالإجابة بدهية:

الكمال لله وحده وجبل كل البشر على النقص وكلما ارتقى الحكيم في سلم الكفاءة والعبقرية - ومهما كانت عظمته - أدرك حاجته لمن يعاونه ويشير عليه، فيجبر نقصه ويشاركه في وزره.

ومن أجل ذلك نص القرآن على الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بل أمر بها سيد أجمعين ﷺ ﴿... فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ...﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ومن سعد القائد - أن تعذر وجود مؤسسة قيادة - أن يوفق فيعضد ببطانة تأمره بالخير، فعن أبي أيوب رضي الله عنه مرفوعا: (ما بعث الله من نبي و لا كان بعده من خليفة إلا كان له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر وبطانة لا تألوه خبالا فمن وقي بطانة السوء فقد وقي). [٥٥٨٠صحيح الجامع].

ومستشار يصلح بفكره التدبير، وبوزير يناصفه الأحمال، فعن عائشة رضي الله عنها مرفوعا: (إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسي ذكره و إن ذكر أعانه و إذا

أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء إن نسي لم يذكره و إن ذكر لم يعنه). [٣٠٢ صحيح الجامع].

وقد من الله عليه برجال من النوعية الجيدة يقول العبدة حفظه الله في دراسته القيمة: (أيعيد التاريخ نفسه؟ دراسة لأحوال العالم الإسلامي قبل صلاح الدين مقارنة مع واقعنا المعاصر): (. . .فعندما يكون الحاكم صالحاً يحب أهل الدين والخير، يوفقه الله سبحانه وتعالى إلى بطانة صالحة من وزراء وأمراء وهذا ما ينطبق تماماً على صلاح الدين، فقد وفق إلى وزير صدق هو القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني – كما وفق صلاح الدين إلى قادة جيوش مخلصين في الجهاد . . فمن أمراءه عز الدين جور ديك وهو من مماليك نور الدين، جمع الديانة والشجاعة، وسيف الدين جاولي، وكان شهماً شجاعاً يرجع إلى دين وعبادة، وأبو الهيجاء ابن السمين وابن المشطوب وبهاء الدين قراقوش. . [العبدة ٩٥]

لكن الحظ الأوفى من كل ذلك تمثل وأجتمع في شخصية القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الفلسطيني، الذي يترجم له الأستاذ العبدة بقوله: ومن

هذه المسارب التي تجمعت للإحياء السني في الشام ومصر شخصية سيكون لها أثر كبير وفعّال في مساعدة صلاح الدين في مشروعه الجهادي ومشروعه لتوحيد المناطق التي في بؤرة الصراع مع الصليبيين، إنَّه كاتب متمرّن في دواوين الحكم والإدارة في القاهرة، كاتب فلسطيني من مدينة عسقلان المحتلة، ومن أسرة علمية، إنه عبد الرحيم البيساني الملقب بـ (القاضي الفاضل) .

ولد عبد الرحيم في عسقلان عام ٥٢٦ هـ وقد تعرضت هذه المدينة لهجمات الفرنجة من البر والبحر. وفي عام ٥٤٣هـ أرسله والده إلى القاهرة ليتدرَّب على الإدارة والكتابة. عمل عبد الرحيم في ديوان المراسلات ونجح نجاحاً باهراً، وكانت مصر في الأعوام (٥٥٨ ـ ٥٦٤هـ) تتخبط في سياستها تخبطاً شديداً؛ فالمؤامرات مستمرة بين الوزراء وقصر الحكم، وبين الوزراء أنفسهم، يستعينون مرة بالصليبيين خوفاً من دولة نور الدين في دمشق، ومرة يستعينون بنور الدين، أو يحاولون ضرب هؤلاء بعضهم ببعض، وبسبب الاستعانة بالفرنجة فرض عليهم الملك الصليبي (أموري) ضرائب عالية أنهكت مصر مالياً.

عاش عبد الرحيم هذه الأجواء السياسية الفاسدة، وهذه الخيانة للدين وللأمة، وعندما التقى بالجيش الشامي الذي جاء لإنقاذ مصر من الفرنجة والذي يقوده (أسد الدين شيركوه) عم صلاح الدين، تطلعت نفس هذا الكاتب لهذا التوجه الذي يقوده نور الدين من دمشق، وكانت هذه نقطة الانعطاف في حياة عبد الرحيم؛ حيث أصبح المستشار السياسي والإداري لصلاح الدين الذي تسلم الوزارة بعد عمه أسد الدين.

كان أول خطوة لإنجاز المشروع الجهادي قيام صلاح الدين بمساعدة القاضي الفاضل بإلغاء الدولة الفاطمية والارتباط رسمياً بالخلافة العباسية في بغداد. وفي رسالة من القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي: «ونحن نقاتل العدوين: الباطن والظاهر، ونصابر الضررين: المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره»..... ويقول في رسالة أخرى إلى الخليفة: «فأضحى الدين واحداً بعد ما كان أدياناً، والجمعة جامعة...». فهاجس الوحدة الإسلامية كان ملازماً للقاضي الفاضل؛ ولذلك كانت الخطوة الثانية توحيد بلاد الشام ومصر بعد وفاة نور الدين

محمود، وكانت رسائل القاضي إلى زعماء دمشق يدعوهم فيها إلى الوحدة ويمهد لمجيء صلاح الدين.

لم يكن القاضي الفاضل كاتباً ووزيراً سياسياً فحسب؛ بل كان يعلم أنَّ قوة الدولة في العدل والعلم، فكان ينصح صلاح الدين بأن يكون على صلة بالقواعد الشعبية وبمشاكل الناس، ويقول له: «يا مولانا: مظالم الخلق كشفُها أهم من كلّ ما يُتقرَّب به إلى الله..».

وهو الذي أنشأ المعاهد التربوية التعليمية.

بعد هذه الخطوات الناجحة كان لا بد من الجهاد لتحرير الأرض المباركة، وخاصة مدينة القدس؛ فكان القاضي الفاضل يشرف بنفسه على تجهيز الجيوش وما يسمى اليوم بالعمليات «اللوجستية»، وأصبح جهاد العدو أكبر همٍّ عنده؛ فكان ينصح صلاح الدين بألاَّ يتعب نفسه بضم مدينة الموصل ويكتفي ببلاد الشام ومصر؛ ليتفرغ للفرنجة المحتلين، وكان صلاح الدين قد مرض قبل حصار الموصل، ويقول له القاضي: «يجب ألا تحارب مسلماً بعد ما شفاك الله من المرض، ووجِّه اهتمامك لمجاهدة الفرنج». وصلاح الدين يعلم أهمية رأي القاضي **الذي يملك تصوراً**

استراتيجياً لأسباب النصر؛ فكان يستشيره في كل صغيرة وكبيرة، وكان من نتائج هذا التلاحم بين القيادة العسكرية والقيادة الإدارية العلمية، ومن نتائج هذا الإحياء السني والوحدة بين الشام ومصر؛ أن بدأت الانتصارات الكبرى لصلاح الدين وأولها معركة حطين ٥٨٣ هـ ١١٨٧ م حين نزل صلاح الدين عن فرسه وسجد شكراً لله وبكى من فرحه بهذا النصر. وتلا ذلك فتح عكا وعسقلان، ثم إعادة القدس إلى ولاية الإسلام وكان يوماً من أيام الله». [الإحياء السني/ الشيخ محمد العبدة /منشورة على النت].

ثم استمع لقول العماد لترى قدره كمستشار ووزير (ووصل القاضي الفاضل من مصر إلى معسكر المنصور.. وكان السلطان متشوقاً لقدومه، وطالت مدة البين، لغيبته عنه سنتين، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه والى أركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام، وإن تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والأحكام، وكان يكاتبه بشرح الأحوال يستشيره ثم وصل في ذي الحجة واجتمع الشمل، واستأنس الملك

بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره.) [(٤٣٧) الروضتين].

وقال: وكان - رحمه الله - للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سلطانه مطاع، والسلطان له مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان وصاحب القرآن، قد خصه الله بالمكانة والإمكان، والسلطان - رحمه الله - من مفتتحات فتوحه ومختتماتها و مبادي أمور دولته وغاياتها، ما أفتتح الآخرين إلا بأقاليد آرائه ومقاليد غناه وغنائه.

أما في باب التذكير والتقويم فنكتفي بهذه الرسالة يخاطبه بعد كسرة فيقول القاضي الفاضل: (إنما أوتينا من قبل أنفسنا، ولو صادقناه لعجل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ولو **فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به**، فلا يستخصم أحد إلا عمله، ولا يلم إلا نفسه، ولا يرج إلا ربه، ولا تنتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أن يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها ولا نأمل أن يكلنا الله إليها ، والنصر به، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله - سبحانه -

من ذنوبنا فلولا أنها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق [(٤٥٥) الروضتين].

ويحدد له حد المفاوضات السياسية بالحدود الشرعية فيقول الفاضل: (.. وكل مقترح يجاب إليه إلا ثغراً يسير نصرانياً بعد أن أسلم، أو بلداً يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم .. وما ابتلى الله - سبحانه - من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً وكأن ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر ..) [٤٦٢ الروضتين]

ولم يكن الفاضل من أهل العلم والعمل فقط بل كان من أهل الجود والإنفاق فهو يختار أحب ماله لينفق (اللهم إنك تعلم أن هذا الربع ليس شئ أحب إلي منه. اللهم أشهد أني وقفته على فكاك الأسرى) [البداية/ابن كثير٢٤/١٣/].

ويحفظ له صلاح الدين فضله فهو (يقول لأصحابه وقواده: «لا تظنوا أني فتحت البلاد بالعساكر، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل» [العبدة].

وليس عجيباً أن يكون المستشار السياسي والكافي الإداري والمدعم النفسي والكفء في تحمل المسئوليات من رجال الشرع فإن هذا هو سمت العلماء العاملون، لكن العجيب ألا تكون صورة الرسول القائد (ﷺ) ومن بعده صحابته أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ بن جبل و من هو مثل عمر بن عبد العزيز ومن جاء بعدهم أمثال ابن المبارك وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب... وأشباههم هي الصورة التي يرجوها طلبة العلم الآن.

وهذا ابن حجر الشافعي وهو يتعرض لحديث «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**» فيقول: (... فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعي ذلك في عمر بن عبد العزيز... وأما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل..) [فتح الباري/ كتاب الاعتصام، الباب العاشر]

والأمة الآن في حال لا يخفى علينا ولن يقوم بأمرها إلا رجال شرع يسعون لاستكمال صفات الخير كلها.

قصور يدل على العظمة

ولكن ماذا عن صلاح الدين في مجال الإدارة المدنية وكقائد حربي؟!

في الحقيقة لربما صدمت الحقيقة محبي هذا القائد العظيم، فهو لم يكن في المجال الإداري والحربي إلا مجرد رجل من عصره، بل لقد فوض الإدارة لأخيه العادل سيف الدين واستعمل القائد الفاضل رئيس الديوان، أما في المجال الحربي فقد تعرض لكثير من الانتقادات سواء من قواده أو معاصريه.

ولم يكن إنجاز صلاح الدين بناءاً على تكنولوجية متفوقة أو عبقرية حربية متوقدة (استدرج صلاح الدين الصليبيين في موقعة حطين باستخدام استراتيجية نفسية تم توظيفها عسكرياً) أو بناءاً على نظم إدارية متقدمة! إذ لو كان الأمر كذلك لربما نسب الإنجاز لهذا السبب أو ذاك، ولأصبح التدليل على عبقرية برنامجه في مجال السياسة الشرعية محل جدل كبير.

لكن كل ذلك لم يحدث وهكذا تعطى درجات إضافية لمنظومته الراقية.

باب: توسمات أنصار وأعداء الإسلام

صار أهلا لانتظارهم نصر الله على يديه

الناس يشعرون بحجوم ونوازع قادتهم، فتخرج خبيئة آرائهم كلمات وأشعار، فهذا يخاطب: أسد علي وفي الحروب نعامة، وهذا لا يناسب حقيقته إلا (النكات) الفكاهية، يعالجون بها كآبة خيبة الأمل.

لكن صلاح الدين يخاطب بالأمل الكبير، تعلق بشخصه، فهم يستعجلونه بأدب ويبشرونه في إصرار، قال العماد: (تم فتح حلب في صفر من هذه السنة، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السلطان بأبيات منها):

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر

مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس كما ذكره، فكأنه من الغيب ابتكره). [(٣٥٨) الروضتين].

(قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبت من السلطان جارية من سَبي الأسطول المنصور في أبيات وهي:

يؤمـل المملوك مملـوكة
تبـدل الوحشـة بالأنـس
تخرجه من ليل وسواسه
بطلعـة تشـرق كالشمس
فوحدة العزبة قد حركت
سواكن البلبـال والمـس
فلا تدع يهدم شيطانـه
ما أحكـم التقوى من الأسَ
فوقـع اليوم بمطـلوبـه
مما سبى الأسطول بالأمس
لا زالت وهابـاً لمـا حـازه
سيفك من حور ومن لُعْـس
وإنني آمل من بعـدها
كرائم السبي من القـدس

قال: فجاء الأمر على وفق الأمل، فوهب لي ما أملت عام القدس). [(٣٦٤) الروضتين].

لماذا لا نرى الإنجاز من منظار عدونا!

وليم الصوري هو رئيس أساقفة صور المقرب من ملك مملكة القدس الصليبية أموري الأول الذي خطط لاحتلال مصر فوقع اختياره على وليم ليجمع بين رئاسة الأساقفة وتأريخ الحملة مما جعله صاحب علاقات وثيقة بالبلاط الملكي.

هذا الرجل الذي يوصف تاريخه بأنه أفضل وأكمل مصدر لاتيني أرخ للحروب الصليبية (حطين/ ١٩) يقول: «ينبغي عليَّ هنا أن أنحرف عن مسار روايتي، ليس لأتجول هنا وهناك دونما هدف، بل لتقديم شيء ثمين، فالسؤال الذي أسأله دائمًا بحق هو: لماذا كان أجدادنا، يتمكنون بشجاعة من التصدي في المعركة، وهم أقل عدداً لقوات عدوة أكبر منهم بكثير، وغالبًا - بنعمة الله - ما كانت قوة صغيرة من قواتنا تحطم حشوداً كبيرة للعدو، حتى صار نتيجة لهذا اسم الصليبيين يبعث الرعب في قلوب الأمم التي لا تعرف الرب (يقصد أمة الإسلام)، وهكذا تجلت عظمة الرب في أعمال أجدادنا، وعلى العكس من هذا نجد رجال عصرنا غالبًا ما تلحق بهم الهزيمة من قبل قوات أصغر منهم لا بل عندما يكونون بأعداد أكبر ويحاولون تنفيذ

بعض المهام ضد الأعداد الأقل قوة منهم، فإن جهودهم تتبدد وهم غالبًا ما يجبرون على الهزيمة.

... وبعدما يعلل ذلك بأنه نتيجة لنقص ديانة أهل عصره ثم يثني بأن أهل الشرق كانوا معتادين على السلم لا الحرب يختتم بإظهار إنجاز صلاح الدين فيقول: ..... وسبب ثالث ليس أقل أهمية وتأثيرًا يفرض نفسه على مداركي هو أنه كان لكل مدينة شرقية فيما مضى حاكمها الخاص، ولنقل على طريقة أرسطو لم يكن هؤلاء يعتمدون على بعضهم البعض، ونادرًا ما تحركوا بنفس الاتجاه بل غالبًا ما ساروا في الاتجاهات المتعاكسة، لأن كلا منهم يخشى من حلفائه أكثر من خشيته من الصليبيين، ولذلك فإنهم لن يستطيعوا، أو بالحري هم ليسوا على استعداد لأن يتحدوا في سبيل طرد الخطر العام، أو يسلحوا أنفسهم لتدميرنا.

لكن الآن، – وهذه مشيئة الله – جميع الممالك المجاورة لنا أصبحت تحت قيادة واحدة.

وهكذا كما سلف القول، جميع الممالك حولنا تطيع حاكمًا واحدًا، وينفذون إرادة رجل واحد، ويلتزمون بأوامره طوعًا وكرهًا، وهم جاهزون، كقوة واحدة لحمل السلاح

لقتالنا، **وما من واحد منهم يمكنه التورط بعمل يخدم به ذاته**، وفيه مخالفة أو عدم مراعاة لأوامر سيده، وهذا السيد هو صلاح الدين الذي أشرنا إليه مراراً من قبل وفي مناسبات عدة، فهو الذي يضع هذه الممالك تحت إمرته، والآن إنني أعتقد أن هناك حاجة ملحة لأن يبذل كل جهد ممكن لمواجهة هذا الرجل العظيم والتصدي له في تقدمه السريع وفي انتصاراته المتوالية، التي ستوصله حتماً إلى أوج طموحاته، فالشعور العام أنه كلما ازداد قوة سيبرهن على أنه عدو مرعب لنا».) [(٤٠٦-٤٠٨) William of Tyre، / حطين/ زكار/ ١٩، ١٠٢ - ١٠٤].

باب: نهاية جهد الرافعة

لا تجاوز بطموحك سقف قدرتك

وكنا في فصل سابق قد أشرنا إلى استراتيجية صلاح الدين لضبط العمل وتوحيد الجهد والتي كان أحد محاورها ترشد رؤية الأفراد لمصالحهم الخاصة والارتقاء بها دون إغفالها لتصب في نهر مصالح الأمة.

وكنا قريبا قد دحضنا خطأ من ينكر وجود خطة عبقرية من وضع صلاح الدين ومستشاره لتوحيد الأمة،